رؤى وحكايا ومؤسسات

تجربة في السياق المجتمعي

روان النتشة

في إحدى المرات كنت في زيارة ميدانية فجاءني طفل صغير وقال لي إن أستاذ العربي قال له: «إن القواعد غير مهمة، وإن الكتاب المقرر غير مهم أيضاً، وإنه يمكنني أن أكتشف لغتي العربية وأحبها دون الحاجة لأن أذهب وأدرس القواعد، فإذا كنت أحب الشعر وأقرأه، فإن ذلك يمكنني من أن أكتشف النمط، وأن أمتلك سر اللغة، الذي هو المعنى، وعندها أعرف ماذا تعني لي اللغة». فقلت له: هذا ممتاز.

وكنت في زيارة أخرى قال لي طفل صغير: أنا عندي أستاذ دين لما سألته عن الذات الإلهية وايش بتعني بالنسبة إليّ، لم يقل إني كافر، قال: خلينا نشوف، يمكن نؤمن ويمكن لا نؤمن، في النهاية في طريق لازم نسأل حتى نعبرها (ذهلت، غير معقول، لم أصدق).

ذهبت إلى قرية ثانية، ووجدت طالبة قالت لي إن أستاذ الرياضيات عرف أنها مولعة بلعبة الطنج، وبلعبة اسمها المحبوسة، فشجعها وقال لها: هيك الرياضيات بتشتغل، وإن الطنج مع إنها لعبة بلعبوها على القهوة، ولكنها في صميمها هي علم رياضيات.

وذهبت إلى محل آخر، فقال لي أحد الطلاب إن أستاذ التاريخ قال له اقرأ التاريخ وخذ حكمته شوف كيف بمشي، في هذه الطريقة مش ضروري تحفظ. قلت يا جماعة غير معقول، واستيقظت صباحاً وكنت بحلم.

أنا أعمل مديرة قطاع التعليم في مؤسسة التعاون، في الحقيقة أريد

سرد بعض مشاهداتي، أريد أن أحكي عن أنماط عامة نراها دائماً، وأنا لست معلمة، أنا أعمل في إطار المشاريع التربوية في فلسطين، وأنا جديدة في المجال، ولكن هناك بعض الأنماط التي ألاحظها؛ نذهب إلى مدرسة معينة نجد معلمة تقول: بدنا دورات . . . بدنا تجهيزات . . . مش قادرين نضبط الطلاب.

كلهم يرددون نريد دورات، ونريد كذا، لنفترض أن ذلك احتياج، لست أدري لو سألت المعلمة ماذا تستطيع هي أن تقدم. وذات مرة سألت معلمة: أنتن كمعلمات تحتجن إلى الكثير من الأمور، ولكن ماذا تستطعن أن تقدمن؟ فقالت إنها ستتحدث في استراحة القهوة مع الزميلات.

ثمة أنماط نراها في بعض الأحيان تجعلنا نتساءل ماذا نعمل في التعليم؟

ونرى أنماط الناس تقول بدنا . . بدنا . . بدنا، ولكن لم أر أحداً قال: أريد أن أعطي، أريد أن أقدم شيئاً، هناك تجارب في العطاء والمبادرة ولكنها محدودة وتبقى دائماً على الهامش؟!

والفكر الآخر أصبح مسيطراً بشكل متزايد، هذه المشاهد دائماً نراها، نرى إحدى الدول المانحة أو مؤسسة أجنبية أو غير أجنبية، تأتي إلى موقع تقول: نريد أن نقدم تجهيزات ودورات. هناك علاقة غريبة، وربما هذا هو وضع البلد، فهناك من يعطي وهناك من يأخذ، ولكن ما مدى التفاعل بين هؤلاء على كل المستويات؟ ما مدى الأنماط والعلاقات التي تربطهما؟، وهذه الأمور بحاجة إلى دراسة، لأنها تنعكس جميعها على البيئة التعليمية.

أريد أن أذكر مشهداً أثار حنقي: كانت هناك بنت صغيرة (13 سنة)، قالت لي: أريد أن أكتب (proposal). أنا صدمت، قالت: أجانا أشخاص من مؤسسة معينة، حكوا لنا إذا بدنا نشتغل اشي في القرية لازم نعمل (proposal). أنا خفت من انو البنت صار عندها فكرة معينة، هي بتاخد لعب في المدرسة انو هي إذا بدها تشتغل شيء لازمها (proposal)، وإذا ما في (proposal) ما في شغل. ولازمها مصاري والبنت حكت أنا هلأ بكتب (proposal)، ولازمها مصاري، وهي بتقسم الميزانية، هي شاطرة حطت 5% مصاريف إدارية، وهذا التحليل لبنت عمرها (13 سنة) في مدرسة، وهي عم تتعلم إذا أردت عمل شيء لازم يكون هناك (proposal)، ولازم يكون هناك مبرر، ولكن يمكن أنتي بدك عمل جاي على بالك تعملي شي.

هذه المشاهد نراها بشكل عام، أريد أن أتحدث عن ظاهرة غريبة اسمها الافتراضات، افتراضات عن تصميم مشروع، لمن يعمل مبادرة، لمن يقوم بعمل، نتخيل أنه جيد للتعليم. أول فرضية تقولها أن التدريب بالضرورة يؤدي إلى تحسين قدرات المعلم، ويمكنني أن أعطيكم، كوننا مؤسسة نعمل في هذا الإطار، وأستطيع أن أعطيكم معلماً معيناً كم دورة أخذ، من يفترض أن الدورات سيئة بطبيعتها، ولكن هل فعلاً تحقق تحسناً وتترك أثراً.

أريد أن أتحدث عن ثقافة مرتبطة بالدورات، وهي أننا نتخلص من يوم من الدوام، أو نرى بعض ونقضي يوماً في فندق، وهذا أفضل من البقاء في مكان العمل، وهذه ثقافة يجب ألا نستهين بها، وكم هي خطيرة على التعليم، أيضاً فرضية: هل التدريب هو وسيلة أم

هو الإطار الذي يتفاعل به الناس وينقلون خبراتهم لبعضهم؟ ويمكن أن نحاول أن نجرب أنماطاً جديدة من العمل، نجرب أن نشتغل على أفكار مثل معايشات، أفكار لا تجعلنا محصورين في مشروع تعليمي مثل المشتريات والتدريب، أي فعل هذا للتعليم؟

نحاول أن نخرج من هذا الإطار، ونجرب كيف نجعل الناس يفكرون في طرق بديلة. إن هذه الفرضية ليست بالضرورة صحيحة، ولكن يمكن أن تكون صحيحة، ولكن ليست مقدسة. هناك فرضية تزعجني بأن المعلم دائماً عنده مشكلة، هذه لاحظتها بشكل كبير، وأيضاً مثل أن يأتي أستاذ أو معلم من جامعة معينة ويقول: نريد أن نعمل دورة تأهيل معلمين أو تدريب معلمين. وأخيراً سمعت مصطلحاً هو "تربية المعلمين"، وأنا أصبحت أتساءل إذا كنتم تعاملون المعلم كإنسان معاق فكيف سيتعامل هو مع الأطفال؟ إذا لم تعطوه هذه المساحة ليكون حراً فكيف سيترجمها بالعمل مع الأطفال، أيضاً هذه الفرضيات أحب أن نستكشفها مع بعضنا البعض.

هناك فرضية أن الخبير يعرف أكثر، ودائماً في كل المشاريع يكون هناك الكثير من الخبرة، خبير في هذا وذاك، ولكن لم نسمع أبداً أن البلد أو البيئة كم لديها من الخبرة . . . هذه مجرد ملاحظات.

أريد أن أسأل، بما أن الكلمة اسمها رؤى وحكاية ومؤسسات، عن مدى سماح المؤسسة، أي مؤسسة، بتقديم فرصة للحرية وابتكار القدرة أن الأفراد نفسهم العاملين يكون لديهم حق في المبادرة، لا نريد أن نقول إن المؤسسة كلها مبنية على السيطرة، ولكن نريد أن نكتشف أو نتساءل كيف يمكن أن نطوع هذه المؤسسة، أو نعبر من خلالها مساحة من الحرية.

أريد أن أختم بقصة مكتوبة قبل 100 سنة للكاتب الهندي طاغور:

بحكي أنه كان هناك عصفور كثير الحجال، وكان العصفور في الغابة، ويتكلم مع كل الحيوانات، وكان يغني. مر به الملك، ولأنه عصفور جميل أخذه الملك على القصر، وبنى له قفصاً في القصر، وصار كل يوم يزوره، ويتفقد احتياجاته. في اليوم الأول زاره الملك، وكانت مشربة المياه ناقصة. وفي اليوم الثاني زاره الوزير، وأخبر الملك أن القفص ينقصه أرجوحة. وبعد اليوم الخامس وجدوا العصفور ميتاً.

القفص هو مدارسنا للأسف، وعلى الرغم من ذلك، فإننا دائماً نعمل على تطويره وتحسينه!

روان النتشة
مؤسسة التعاون